الفصل السادس

حرية العقيدة فى الإسلام

obeikandl.com

obeikandl.com

لاإكراه ولا عصبية

احتلت قضية الصراع الدينى مكان الصدارة فى تاريخ الجنس البشرى ، إذ لم يخل عصر من العصور من وجود خصومة بين الشعوب على أساس دينى ، تصل فى كثير من الأحيان إلى حد الصراع المسلح بينهما . كذلك لا يلتقى اثنان من أتباع دينين مختلفين إلا وتقوم بينهما مناقشات ومحاورات حول مبادئ وتعاليم عقيدتيهما ، تارة تكون بألفاظ مهذبة ، وأخرى تصل إلى حد التراشق بالألفاظ الجارحة عن موضوع البحث أو بأسلوب يتسم بالعنف والبعد عن الطرق الموصلة إلى الحقيقة .

كان هذا هو طابع الصراع الدينى ، والخصومة المذهبية منذ القدم ، شب عليها الجنس لبشرى جيلاً بعد آخر ، فأورثه ذلك أحقاداً وخصومات بين الشعوب ، كما أنه خلف من الضحايا والمآسى ما تقشعر منه الأبدان ؛ إذ لم تروع البشرية ، على امتداد التاريخ الإنسانى ، بمثل ما روعت به مما حل بها من آثار التعصب الدينى ، الذى مزق الجنس البشرى إلى معسكرات متحاربة ، يقتل بعضها بعضاً باسم الدين ، ويستحل بعضها دماء آخرين فى سبيل الدعوة إلى العقيدة ، بل إن أبناء الدين الواحد تفرقوا شيعاً وأحزاباً يقتل بعضهم بعضاً فى سبيل فرض رأى على آخر .

ولما جاءت رسالة الإسلام ختاماً لرسالات الدين أقرت حرية العقيدة ، بل إن الإسلام فرضها على المؤمنين به تكليفاً ، وألزمهم بها تجاه غيرهم ديناً وعقيدة وسلوكاً ، فقد بدأ أولاً بتعليم الرسول ﷺ هذا المبدأ الجديد على الإنسانية ، حتى لا يدفعه حرصه على الإيمان إلى أن يأخذ الناس قسراً ، فيكرههم على اعتناق الإسلام ، وهو ما يأباه الإسلام نصاً وروحاً ، لأنه قرر أن العقيدة لا تكون عقيدة صحيحة إلا إذا صدرت عن اعتقاد ، والإيمان لايكون إيماناً ، إلا إذا كان منبعه القلب والضمير ، فمن ينطق بكلمة الإسلام بالإكراه ، دون أن يعتقد ذلك عن اقتناع ، لا يكون هذا إسلاماً ، وإنما يَعُدّه الإسلام نفاقاً ، والنفاق فى الإسلام شر من الكفر .

كذلك إذا لم يكن الإيمان عن رضاً خالص وطمأنينة صادقة يكون نفاقاً أيضاً ، فقد بين القرآن الكريم لمحمد ﷺ أن المسلم لا يكون إسلامه صحيحاً إلا إذا انتفى عنصر الإكراه فى

اعتناقه هذا الدين ، ولهذا لم يتدخل الله فى حمل الناس على الإسلام ، فينبغى عليك أيضاً ألا تكره أحداً على الدخول فى الإسلام ، يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [يونس : ٩٩] ، ويقول : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة : ٢٥٦]

فإقرار الحرية فى الاعتقاد يشعر الناس بأنهم مسئولون مسئولية كاملة فى اختيارهم عقيدتهم ، إذ لا يتدخل أحد فى حملهم بالإكراه على اعتناق هذه العقيدة أو تلك ، ولذلك فتبعة الاختيار ملقاة على عاتقهم هم ، إذ ليس للرسل إلا أن يبلغوهم بما أنزل الله ، وهم أحرار بعد أن يسمعوا وحى الله فيما يختارون ، فمهمة الرسول البلاغ فقط ، يقول الله تعالى: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [آل عمران : ٢٠] ، ويقول : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النحل : ٣٥] ، ويقول : ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ ﴾ [المائدة : ٩٢]

ويتكرر بيان قصر مهمة الرسول ﷺ على التبليغ فى القرآن الكريم فى أكثر من عشر مرات ، مؤكداً أ ن موقفه من المعاندين والمكذبين لا ينبغى أن يتجاوز مهمة البلاغ ، يقول تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ [الشورى : ٤٨] ، وذلك لتأصيل مبدأ حرية الاعتقاد فى الإسلام .

ويعرض القرآن الكريم لما قد يلاقيه الرسول ﷺ من صعاب ومشقة إزاء الالتزام بهذا المبدأ ؛ إذ قد يصيبه الحزن عليه الصلاة والسلام على حال قومه ، الذين يأبون الدخول فى الإسلام ، ويشق على نفسه ألا يحملهم على اتباع ما فيه الخير لهم ، لأنه حريص على منفعتهم ،فيقول له :﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [النحل: ١٢٧] ، ويقول :﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الحجر : ٩٤] ، ويقول : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الحجر : ٩٧ – ٩٨] ، ويقول : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنعام : ٣٣ – ٣٥]

ويقول : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾[النحل : ١٢٥ – ١٢٧]

فالإسلام لا يكره أحداً على الدخول فيه ، بل يعرض عليه مبادئه بأسلوب مهذب ، فإن قبل فبها ونعمت ، وإن لم يقبل تركه وشأنه ، ويكفى المسلم أن يبلغ أمر ربه ، يقول تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦ ﴾ [الكافرون : ١ – ٦]

وبهذا أقر الإسلام مبدأ الحرية فى العقيدة ، فوضع بذلك مبدأ الحوار الفكرى ، بدلاً من الصراع المسلح ، أو الإقناع والاقتناع العقلى ، بدلاً من المهاترات بالألفاظ اجارحة ، والأساليب الممجوجة ، وهذا هو ما ينبغى أن يكون عليه أسلوب الدعوة إلى المعبود : موعظة حسنة ، وجدال بالتى هى أحسن .

الاعتراف بالرسالات السابقة

لم يكتف الإسلام فى مجال حرية العقيدة بالدعوة إلى أن اعتناق الإسلام ينبغى أن يقوم على أساس الاقتناع به ، وليس نتيجة خوف أو إكراه ، بل تعدى هذا المفهوم فأوجب على المسلم أن يؤمن بالرسل السابقين كلهم ، وأن يقر بما جاءوا به من رسالات السماء ، لأنهم تلقوا هذا وحياً من الله ﷻ ، يقول تعالى : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۝٤ ﴾ [آل عمران: ٣ – ٤]

فحرية الاعتقاد ، والاعتراف بكل الرسالات السابقة ، والتصديق بما جاء على لسانهم من وحى ، كل هذه مبادئ أساسية فى الإسلام . ويضاف إليها أنه طلب من المسلمين أن يجادلوا أهل الكتاب بأسلوب حسن ، لا عنف فيه ولا غلظة ، ولا سباب فيه ولا تجريح ، يقول تعالى : ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ

ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٦] . بل إنه بين لهم أن منهج الإسلام يقوم على أساس جمع البشرية تحت لواء واحد ، فهو ينشد الوحدة الإنسانية الجامعة ، يقول تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٤] ، ويقول : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [آل عمران : ٧٠ – ٧١]

فإن لم تسعف الإنسان طاقاته لفهم هذه المبادئ فأبى واستكبر ، فينبغي على المسلم ألا يتأثر بهذا الإعراض ، بل عليه المضي قدماً في اتباع ما أمره الله به من إيمان بالله ، وتصديق بما أرسل من الرسل ، يقول تعالى : ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [البقرة : ١٣٦] ، ويقول : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ ﴾ [النساء : ١٥٠ –

١٥٢] ، ويقول : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

رفع الوصاية الكهنوتية

كانت حرية العقيدة وسيلة حررت الإنسان من سلطة الكهنوت ، التى تسلطت على العقيدة الدينية بالقهر والتحكم بادعاء الوساطة بين الناس وبين الله ، وبما أضفته على نفسها من قدرة على غفران الذنوب ، وإصدار فرمانات التكفير والحرمان . فإقرار الإسلام أن النبى ﷺ لايملك من الأمر إلا البلاغ فقط ، أكد للناس أنهم مسئولون أمام الله فقط ، وليس لأحد عليهم سلطان ، مهما بلغ مركزه الدينى ، فليس هناك واسطة بن العبد وربه ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة : ١٨٦] ويقول : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الشورى : ٢٥] ، ويقول : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه : ٨٢]

فليس لأحد أن يوزع بطاقات دخول الجنة والنار ، أو أن يحدد لمخلوق مثله مكانه فى الدار الآخرة ، لأن ذلك من عمل الله وحده ، فهو الذى يصطفى الرسل من الناس ، ليبلغوا رسالته فقط ، وليس لهم حق إلهى فى مصائر الناس ، فالله هو وحده صاحب هذا الحق ، لأنه أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعم بمن اتبع طريق الهدى ، يقول تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ

عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ ﴾ [النجم : ٢٩ – ٣٠]

رفع الإسلام فى مجال العقيدة عن كاهل الإنسان إصر تلك الكهنوتية ، تقريراً لحرية عقيدته وضميره وعقله ، فقال تعالى : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [النساء : ٨٠] ، ويقول : ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [الأنعام : ١٠٤]

وإمعاناً فى تأكيد مبدأ حرية الإنسان فى العقيدة ، وتحريره من أى سلطة دنيوية ، أياً كان وضعها ، ورفضه وصاية أي جهة على الإنسان فى مجال العقيدة ، بيَّن الإسلام أن الله لا يقبل إلا ما يقدمه العبد بنفسه ، فلا تنفعه وساطة غيره ، حتى ولو كان نبياً مصطفى ، أو خليلاً مرسلاً ، إذ رفض استغفار الرسول المصطفى للمشركين والمنافقين ، كما رفض استغفار إبراهيم لأبيه ، فقال تعالى : ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [التوبة : ٨٠] ، ويقول :﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [التوبة : ١١٣ – ١١٤]

بل إن حق الشفاعة الذى أعطاه الله لبعض من رضى عنهم من خلقه ، تعلق بإذنه ﷻ ورضاه ، يقول تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [طه : ١٠٨ – ١٠٩] ، ويقول : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [يونس : ٣] ، ويقول : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ ﴿٢٣﴾ ﴾ [سبأ: ٢٢ – ٢٣] ، ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٦ – ٢٨] ، ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة : ٢٥٥]

فإذا لم يأذن الله فلا تجدى شفاعة أحد ،يقول تعالى : ﴿ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ

ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المدثر: ٤٣ – ٤٨] ، ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنعام : ٥١] ، ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأنعام : ٧٠] ، ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ﴾ [غافر : ١٨] ، ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ ﴿٤﴾ ﴾ [السجدة : ٤] ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾ [البقرة : ٢٥٤]

وبهذا حرر الإسلام الإنسان من ادعاء الوساطة الكهنوتية ، فصار حراً فيما يعتقد ، حراً فيما يأتى من أعمال ، وسيحاسبه الله على ما يختار ، لأنه إذا انتفى إجباره تحمل نتيجة احتياره .

تأمين مجال الحرية

أقر الإسلام مبدأ حرية العقيدة ، بل فرضه على المسلمين ، وألزمهم به ، فلم يسمح لأحد منهم ، مهما كان مركزه الدينى أن يجبر أحداً على الدخول فى الإسلام ، لأن العقيدة لابد أن تصدر عن اختيار حر ، وإلا كانت نفاقاً . ولما كانت الحياة الإنسانية خليطاً من الخير والشر ، ومزيجاً من الحق والباطل ، كان لكل جانب أتباعه ومعتنقوه .

ومما لاشك فيه أن أصحاب السوء والمروجين للباطل ، لا يتورعون عن الإقدام بالقوة – باختلاف أنواعها وأساليبها – على نشر مفاسدهم ، والعمل على سيطرة باطلهم على

ماعداه فى جميع نواحى الحياة ، مما يجعل الظروف المحيطة بالإنسان لا تعطيه حرية الاختيار فى العقيدة ، فقد يريد الخير ويميل إلى اعتناق الإسلام عن رغبة داخلية ، واقتناع بمبادئه ، ولكنه لا يستطيع ذلك ، لأن المجتمع الذى يعيش فيه واقع تحت سيطرة قوى الشر ، ومحاط برقابة أهل السوء ، الذين لا يسمحون لأحد أن يحيد عن مبدئهم ، أو يكفر بما يفرضونه على المجتمع ، بحيث تصبح حرية الاختيار فى مسائل العقيدة أمراً غير ممكن ، بل قد يكون مستحيلاً تطبيقه فى مجال الواقع ، ولهذا أذن الله للمؤمنين بقتال أولئك الذين يظلمون الناس ، فيسلبوهم حرية الاختيار فى العقيدة ، يقول تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج : ٣٩ – ٤٠]

فلو سمح المجتمع بسماع وحى الله ، ورضى بأن يختار كل أحد ما يقتنع به ، لما كان هناك سبب فى فرض القتال على المسلمين ، ولكن أهل الباطل ، والمفسدين فى الأرض ، والداعين إلى الضلال ، دأبوا على فرض ما عندهم من ضلال على الناس بالقوة ، فكان لابد أن تقابل القوة بمثلها ، لأنهم لو تركوا وشأنهم ، لفقد مبد أ حرية العقيدة معناه ، لأنه إزاء تعنت المستكبرين وسيطرتهم على الضعفاء ، لا يكون هناك مجال للحرية ، بل قوة تحمى الباطل ، وتحول دون وصول الخير إلى من يريده بمحض اختياره ، فلو لم يدافع أهل الحق عن مبدأ حرية العقيدة لعمت البلوى ، وساد الفساد فى الأرض . يقول تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ [البقرة : ٢٥١]

ولما كانت ظروف الحياة البشرية تقتضى من أهل الحق ما وسعهم الجهد لتبليغ مبادئهم للناس ، ولتهيئة الظروف لهم ليختاروا ما يقتنعون به ، فإن وضع الحياة فى المجتمعات البشرية ، تحتم عليهم أن يدافعوا عن حق الإنسان فى أن يختار ما يشاء ، دون ضغط أو إكراه ، ودون أن يحول أحد بينه وبين ذلك ، ولو اقتضى الأمر أن يحمى ذلك الحق بالسلاح ، لوجب عليهم حمله لهذا الغرض .

فوجوب القتال فى الإسلام كان دفاعاً عن الدين من أن يناله المفسدون الضالون ، وتأميناً لحق معتنقيه فى حرية العقيدة ، واطمئناناً لمن يريد الدخول فيه بأنه لن يصيبه شر المستكبرين المعاندين ، إن هو أعلن إيمانه بالإسلام ، وحماية لبيوت العبادة من تطاول أهل الباطل ، ومحاولاتهم طمس معالم الدين .

فدفاع المسلمين عن حرية الإنسان فى التعبير عن آرائه ، وفى اعتناق ما يراه صحيحاً أمر تتطلبه الطبيعة الإنسانية ، لأن طبيعة الإنسان تدفعه إلى الدفاع عن رأيه بالوسائل التى يقاتلها بها من يريد كبت حريته . ولهذا يأمر الله المسلمين أن يستعملوا المنطق فى الدعوة إلى الإسلام ، ولا يلجئوا إلى حمل السلاح ، إلا إذا حاول أعداؤهم حملهم على ترك عقيدتهم بالقوة ، فعندئذ لا يكون لهم سبيل آخر إلا حمل السلاح للدفاع عن العقيدة ، وحرية الاختيار فى اعتناق ما يشاءون ، لأن العقيدة أثمن شيء عند الإنسان ، فهى أثمن من المال والجاه ، بل أغلى من الحياة نفسها ، فإذا ما أراد أحد أن يسلبهم إياه وجب عليهم الدفاع عنها بكل الوسائل .

وعليه ، فلم يشرع القتال فى الإسلام إلا للدفاع عن المسلمين ، كى لا يكونوا لقمة سائغة فى أفواه أعدائهم ، وكذلك لتهيئة الظروف التى تساعد من يقتنع به على أن يعلن إسلامه ، دون خوف من أحد ، فلو لم يبدأ الأعداء بشهر السلاح فى مواجهة المسلمين لما قاتلهم المسلمون ، ولو لم يحجر المستكبرون على المستضعفين ، ويمنعونهم من اعتناق الإسلام الذى اقتنعوا بصحته ، ما شن المسلمون الحروب ضدهم .

فالقتال — وكذا الاستعداد له — فى الإسلام كان للتخويف والإنذار ، حتى لا يفكر أحد من أعدائه فى الاعتداء على المسلمين ، أو يحاول منع انتشار الدعوة بالوقوف فى وجه

الدعاة ، أو بتخويف من يريد الدخول فى الإسلام ، يقول تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنفال : ٦٠]

فى غزوة بدر

شرع الله القتال فى الإسلام لتأمين حرية العقيدة ولحفظ حرمات المسلمين ، وتأمين حياتهم ، ولهذا أمر الله المسلمين أن يكفوا عن القتال ، عندما يبدى الأعداء استعدادهم للالتزام بما يحقق هذين الهدفين ، يقول تعالى : ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنفال : ٦١]

فلو استعرضنا جميع الغزوات والحروب التى وقعت بين المسلمين وأعدائهم ، لوجدنا أن المسلمين لم يشنوا القتال حباً فيه ، أو إكراهاً لغيرهم على الدخول فى الإسلام ، وإنما كان استخلاصاً لحق مسلوب ، أو رداً على اعتداء غاشم ، أو تأديباً لمن يفكر فى الاعتداء " **أى هجوماً وقائياً** " ، أو عقاباً على نقض عهد أو ميثاق .

فغزوة بدر الكبرى — وهى أول لقاء مسلح بين المسلمين والمشركين — كانت لاسترداد ما اغتصبه المشركون من أموال المهاجرين ، فكانت لرد الظلم الذى وقع على المسلمين ، يقول تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج : ٣٩ - ٤٠]

فالإذن بالقتال كان استخلاصاً لحق سلب منهم ، ورداً على ظلم وقع عليهم ، يقول تعالى : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن

تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ [الممتحنة : ٨ – ٩]

كما كانت هذه الغزوة أيضاً عملاً على طريق حرية العقيدة ، لأن الله أراد أن يشعر أهل مكة – عن طريق تعرض المسلمين لعيرهم – أن هناك قوة على طريق تجارتهم إلى الشام ، فينبغى عليهم أن يسارعوا بمهادنتها ، حتى لا تتعرض قوافلهم للخطر ، وفى المهادنة ، أو الاتفاق على عدم التعرض عن طريق إبرام عهد بينهم وبين المسلمين اعتراف بقوة المسلمين وشرعيتهم ، يتطلب من المشركين عدم التصدى للدعاة ، إذا جابوا المنطقة يدعون إلى الله ، وفى ذلك خلق للظروف التى تهيء للناس جواً ، يستطيعون فيه أن يختاروا – دون ضغط أو إكراه – ما يعتقدون ، ويعلنون ذلك دون خوف من أحد .

فخروج جيش المسلمين إلى عير قريش لم يكن لإجبار أحد على الدخول فى الإسلام ، كما لم يكن للاعتداء على أحد بدون وجه حق ، وإنما أريد منه تحقيق عدة أهداف :

- استخلاص حقوق المسلمين التى سلبها منهم أهل مكة لو ظفروا بالعير .
- إشعار أهل مكة بأن هناك قوة على طريق تجارتهم إلى الشام ، فلو لم يسارعوا فيتفقوا معها على أسلوب يضمن حرية كل طرف فى أن يعرض أمره للناس ، ليختاروا ما يرونه صحيحاً ، ويتركون ما وضح بطلانه ، لأصبحت تجارتهم فى خطر .
- ولو تم هذا الاتفاق لكان ذلك نجاحاً للدعوة فى خلق مناخ صالح لحرية العقيدة .

ولكن عندما أفلت عير قريش ، فلم يدركه جيش المسلمين ، وجاءت قريش بخليها وخيلائها يريدون قتال المسلمين ، حتمت هذه الظروف على المسلمين أن يخوضوا المعركة ، وإلا أصيبت الدعوة بنكسة قد يكون فيها القضاء عليها . فقتالهم فى هذه الظروف كان واجباً للدفاع عن وجود العقيدة ، ولدفع ما قد يترتب على النكوص عنه من فساد مشركى

مكة ، إذ لو امتنع المسلمون عن القتال لضاعت دعوتهم بغرور المشركين واستعلائهم ، واستغلال هذا النجاح فى تمكين الطغيان والفساد فى الأرض .

ومن حكمة الله أن جعل العير تفلت من أيدى المسلمين ، ليكون درس القتال عبرة لمن يفكر فى الاعتداء على المسلمين ، فتعلو كلمة الله فى الجزيرة العربية ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨ ﴾ [الأنفال : ٧ – ٨]

وبهذا يتبين أن المسلمين لم يخرجوا من المدينة للاعتداء أو السلب ، وإنما كان لاستخلاص حق من حقوقهم لمسلوبة ، ولتأمين حرية الدعوة ، فلما اضطروا للقتال قاتلوا حتى يحموا أنفسهم ، ويحافظوا على هيبة الدعوة فى الجزيرة العربية ، يقول تعالى : ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢ ﴾[الممتحنة : ٢]

فلو نكص المسلمون عن القتال فى هذه الظروف ، لحكم عليهم التاريخ بأنهم أذلوا وأهينوا ، فرضوا بالذل والهوان ، وتلك سنة تأباها الطبيعة الإنسانية . ولما كان الإسلام موافقاً – فى تعاليمه وشرائعه – لهذه الطبيعة ، لم يرض لأتباعه أن يتصفوا بهذه النقيصة ، فشرع لهم القتال دفاعاً عن أنفسهم وعقيدتهم ، وليس إكراهاً لأحد على الدخول فيه .

فى غزوة أحد

انتصر المسلمون على المشركين فى أول لقاء مسلح بينهم ، وذلك فى غزوة بدرالكبرى ، حيث سقط فى المعركة صناديد قريش ، وزعماء الكفر فيها ، فأثر ذلك فى نفوسهم ، فنشط

أبو سفيان بن حرب ، وعكرمة بن أبى جهل وصفوان بن أمية فى تحريض أهل مكة على الخروج مرة أخرى لقتال المسلمين ، كما حثوهم على التنازل عن أموال العير للإنفاق منها على المعركة ، فقالوا لهم : يا معشر قريش ! إن محمداً قد وتركم ، وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه ، فلعلنا ندرك من ثأرنا بمن أصاب منا ، ففعلوا .

وقال بعض العلماء : إن الله أنزل فى ذلك قرآناً ، هو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنفال : ٣٦]

خرجت قريش بخيلها ورجالها من مكة تريد قتال محمد ﷺ وأصحابه ، فنزلت بالقرب من المدينة ، ولما علم رسول الله ﷺ بخروجهم قال لأصحابه : **إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها** ، فقال بعض الصحابة : يارسول الله ! اخرج بنا إلى أعدائنا ، لا يرون أن جبنا عنهم وضعفنا . ورأى بعضهم المقام فى المدينة ، فإن اقتحموها قاتلناهم ، ولم يزل النبى ﷺ يشاور أصحابه حتى استقر الرأى على الخروج للدفاع عن كيانهم وهيبتهم ضد عدو جاء إليهم يريد القضاء عليهم .

دارت المعركة بين المسلمين وكفار قريش فى شعب أحد ، فرجحت كفة المسلمين بادئ الأمر ، غير أن رماة المسلمين الذين نصحهم رسول الله بألايبرحوا مكانهم ، ظنوا أن الخطر قد زال ، فنزلوا من على الجبل يشاركون المقاتلين فى المعركة ، فانكشفت بذلك ظهور المسلمين مما دفع خالد بن الوليد (وكان يحارب فى هذه المعركة فى صفوف كفار قريش) إلى استغلال هذه الثغرة ، فالتف حول المسلمين ، وكان من نتيجة هذه الحركة أن اشتدت الوطأة على جنود الله ، فأصيبوا إصابة بالغة فى هذه المعركة ، وسقط عدد من أعلام المسلمين شهيداً .

هذه نبذة موجزة عن الغزوة الثانية التى التقى فيها المسلمون مع كفار قريش على ساحة القتال ، ومنها يتبين أن المسلمين لم يبدءوا القتال ، ولم يكونوا راغبين فيه ، وإنما اضطروا إليه اضطراراً ، وحملوا حملاً على خوض المعركة ، إذ لو لم يقاتلوا لذبحهم الكفار ذبحاً ، ولو لم يدافعوا عن أنفسهم لقُتِّلوا تقتيلاً ، ولقضى عليهم نهائياً .

ماذا يمكن أن يكون الحكم عليهم ، لو استسلموا فلم يرفعوا سلاحاً فى وجه عدوهم ، وهم الذين جاءوا يريدون الشر بهم ؟

لو فعلوا ذلك لحكم عليهم التاريخ بأنهم أذلوا وأهينوا ، فرضوا بالذل والهوان ، وتلك سيئة يتبرأ منها كل ذى عقل سليم ، ومنطق قويم ، وفهم لطبيعة الحياة الإنسانية ، وإدراك لقانون الصراع فى المجتمع الإنسانى .

ماذا سيكون وضع حرية العقيدة ، لو ترك المسلمون كفار قريش يعيثون بأسلحتهم ، دون أن يردوهم بالقوة ؟

لو فعلوا ذلك لقضى على المناخ الذى تعيش فيه حرية العقيدة ، ولأغلق باب الحرية نهائياً فى وجوه المستضعفين المستذلين ، الذين لا يملكون من الإرادة الحرة ما يمكنهم من اختيار العقيدة التى يقتنعون بها . وصدق رسول الله ﷺ حين نادى ربه فى غزوة بدر قائلاً : **- اللهم إن تهلك هذه العصابة** (أى المسلمين) **فلن تعبد فى الأرض -** . فلو قضى على المسلمين لضاعت معالم الحق فى هذه الأرض ، ولذا وجب عليهم ديناً ، وإنسانية ، ورحمة بالضعفاء أن يقاتلوا قوى الشر ، حتى لا يستفحل أمرها ، فتكون كارثة على الإنسانية جمعاء .

فى غزوة الخندق

حدثت معارك ومناوشات مع اليهود بعد غزوة أحد ، ولما كان منهجنا ليس تاريخاً للمعارك الإسلامية مع أعداء الإسلام ، وإنما بيان أن المسلمين لم يكونوا معتدين فى أى معركة من المعارك التى خاضوها ، آثرنا ألا نتحدث عن هذه المعارك فى سلسلة زمنية ،

حسب وقوعها ، ولن نتناولها كلها بالتفصيل ، بل سوف نعرض لأهم المعارك من زاوية إظهار أن المسلمين لم يكن هواهم مع الحرب ، بل اضطروا إلى خوضها اضطراراً ، دفاعاً عن أنفسهم ، وتأميناً لحرية العقيدة .

كان اللقاء الثالث للمسلمين مع كفار قريش فى غزوة الخندق ، وسميت أيضاً : غزوة الأحزاب ، لأن جيش الكفار كان يضم عدداً من القبائل ، فأطلق عليهم : أحزاباً ، ويروى أن الذى دفع قريشاً إلى الخروج مرة ثالثة للقاء المسلمين هم اليهود ، لأنهم أضمروا العداوة لرسول الله ﷺ ، فنشطوا فى السر لتقليب القبائل عليه ، وذلك أن نفراً من بنى النضير خرجوا — بعد إجلائهم من المدينة — ومعهم نفر من بنى وائل ، حتى قدموا على قريش فى مكة ، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ ، وقالوا لهم : إنا سنكون معكم عليه ، حتى نستأصله ، وفيهم نزل قوله تعالى ، مشيراً إلى ما قالوه من سوء العاقبة : ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الحشر : ١٥ - ١٦]

وحين عرض اليهود على المشركين أن يكونوا معهم فى الحرب ضد محمد ﷺ قالت لهم قريش : يا معشر اليهود ! إنكم أهل الكتاب الأول ، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ، قالوا : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه . فنزل قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ

نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النساء : ٥١ – ٥٤]

لم يكتف اليهود بتحريض قريش فقط ، بل حرضت غيرها من القبائل مثل غطفان ببطونها وشعابها ، وما زالوا على ذلك حتى اجتمع جيش كبير ، زحف على المدينة لقتال المسلمين ، فلما سمع بهم رسول الله ﷺ ، وبما أجمعوا عليه من أمرٍ ، ضرب الخندق على المدينة ، فعمل فيه رسول الله ﷺ ترغيباً للمسلمين فى الأجر ، وعمل فيه المسلمون حتى أحكموه .

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق ، أقبلت قريش فى عشرة آلاف من أحابيشهم ، ومن تبعهم من كنانة وأهل تهامة ، حتى نزلت بمجتمع الأسيال بما بين الحرف وزغابة ، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذنب نقمى ، بجانب أُحُد ، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون ، حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع (جبل بالمدينة) ، وكان عددهم ثلاثة آلاف ، فضرب هناك عسكره ، فجعل الخندق بينه وبين القوم . استمر الحصار والتراشق وقتاً ، فعظم البلاء على المسلمين واشتد عليهم الخوف ، فقد أتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، حتى ظن المؤمنون كل ظن ، وظهر المنافقون على حقيقتهم ، فقال أحدهم ، وهو معتِّب بن قشير : كان محمد يعدنا أن نأخذ كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط .

غير أن من صدق إيمانهم ، وقويت باليقين عزيمتهم ، واشتد بالوحى جلدهم ، كانوا فى نشاط دائب خلف الخندق ، يناوشون العدو ، ويتربصون بمن يحاولون عبوره ، لا فرق فى ذلك بين رجالهم ونسائهم ، فالكل سواء فى خط الدفاع عن الفئة المؤمنة ، التى أخذت على عاتقها مسئولية تأمين حرية العقيدة ، وتكفلت بالدفاع عن المظلومين ، حتى تهيئ لهم الجو السليم لاختيار ما يرونه حقاً .

حتى جاء نصر الله ، فأرسل على كفار قريش وحلفائهم ريحاً قذفت بهم فى جوف الصحراء ، فرجعوا إلى ديارهم ، دون أن يحققوا ما جاءوا له ، وارتدوا على أعقابهم

خاسرين هيبتهم وكرامتهم بين قبائل الجزيرة العربية ، وكفى الله المؤمنين القتال فى هذه الغزوة ، ومما نزل فيها قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ۛ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۛ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحزاب : ٩ - ١٣]

وقوله : ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۖ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأحزاب : ٢٢ - ٢٥]

فهذه موقعة لم يدع المسلمون إليها ، ولم يختاروا مكانها وزمانها ، بل اضطروا إليها اضطراراً للدفاع عن أنفسهم . **أفلا يعد هذا دليلاً على أن الإسلام لم يحرض المسلمين على القتال لذات القتال ، أو لإكراه أحد على الدخول فيه ، بل كان قتالهم لرد**

الأعداء عن ديارهم ، ودفع الخطر عن أنفسهم ؟ وفى ذلك توضيح بأنهم لم يريدوا سوى خلق الظروف الملائمة لحرية العقيدة .

فى الحديبية

كان أول لقاء حدث بين رسول الله ﷺ وبين قريش بعد جلائهم عن المدينة فى غزوة الخندق ، هو لقاؤه معهم — أو بتعبير أدق مع سفرائهم — فى الحديبية سنة ست من الهجرة ، أى بعد سنة واحدة من غزوة الأحزاب ، ولم يكن لقاء قتال ، وإنما محاورات ومشاورات أدت إلى عقد صلح بين الفريقين .

وتتلخص الأحداث التى تتعلق بهذا الاتفاق أن رسول الله ﷺ أراد زيارة البيت الحرام ، فاستنفر العرب ومن حوله من البوادى من الأعراب ، ليخرجوا معه ، لأنه كان يخشى لو خرج وحده — أو فى نفر قليل — أن تتعرض له قريش بحرب ، أو تحول بينه وبين دخول البيت الحرام ، فكان الاستنفار إجراءً وقائياً ، حتى يتجنب سفك الدماء .

خرج رسول الله ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار ، ومن لحق به من العرب ، وساق معه الهدى ، وأحرم بالعمرة ، ليعرب للناس عن قصده ، وهو زيارة البيت ، فهو لا يريد حرباً ولا قتالاً ، وإنما خرج زائراً لهذا البيت ، ومعظماً له ، ولما علمت قريش بخروجه جمعت جيشاً كبيراً وخرجت به من مكة لمقاتلة المسلمين . وحين وصل خبر خروجهم إلى النبى ﷺ قال : **"يا ويح قريش ، لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب** ... ثم قال : **من يخرج بنا على طريق غير طريقهم الذى هم فيه ؟** ، فتطوع رجل من أسلم بأن يتقدم المسلمين على طريق آخر ، وكان وعراً . لكن المسلمين تحملوا مشقته ، رغبة منهم فى تجنب القتال ، وما ذاك إلا تأكيداً على المسلمين لم يريدوا قتالاً ، ولم يعملوا شيئاً يؤدى — بادئ ذى بدء — إلى سفك الدماء ، بل حاولوا دائماً جهد طاقتهم تجنب هذا الطريق ، الذى لا يجلب إلا المزيد من سقوط ضحايا وسفك دماء .

نزل رسول الله ﷺ فى ثنية المرار ، ولما اطمأن به المقام ، جرت سفارات متعددة بينه وبين قريش ، فكان يؤكد لكل من يأتيه ، سائلاً ومستفسراً عن قصده ، أنه لم يأت لحرب

، وإنما جاء زائراً للبيت ومعظماً له ؛ حتى أنهم حين بعثوا أربعين رجلاً منهم ، وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا من أصحابه أحداً ، ووقعوا فى أيدى المسلمين عفا عـهم رسول الله ، وخلى سبيلهم ، فكان ذلك عملاً واضحاً ، ودليلاً بيِّناً على أن المسلمين لم يريدوا حرباً .

استمرت السفارة بين الفريقين مدة ، ثم بعث رسول الله عثمان بن عفان ، ليخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وإنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً له . فلما احتبسته قريش عندها فترة أشيع أنهم قتلوه ، وعندئذ اختلفت الظروف ، فأصبحت تحتم على المسلمين أن يؤدبوا مَنْ غدر بسفيرهم ، وإلا كان ذلك إهانة لهم ، إن لم يغسلوها ، فلربما استغلها أعداء الإسلام فى وضع العقبات أمام انتشاره ، ولهذا قال رسول الله ﷺ : " **لا نبرح حتى نناجز القوم** " ، ودعا الناس إلى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان ، حيث بايع المسلمون رسول الله ﷺ على الثبات فى ميدان القتال حتى يقضى الله أمراً بينهم وبين قريش ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الفتح : ١٨ – ٢٢]

وبعد أن تمت البيعة فى الحديبية ، تأكد لدى سادات مكة أن ذلك يعنى الاستنفار العام بين المسلمين ، وأن البيعة تعنى تصميم المسلمين على خوض الحرب ضد قريش ، فخاف القرشيون خوفاً شديداً ، لأنهم يدركون – سلفاً – أن نتيجة هذه الحرب – إذا ما نشبت

– ستكون فى غير صالحهم ، مستمدين هذا الإدراك من التجارب العملية القاسية التى لمسوها فى بدر وأُحُد والخندق . ولهذا سارع زعماء قريش إلى طلب الصلح من المسلمين ، بناءً على مشورة ونصيحة سهيل بن عمرو ، سيد بنى عامر بن لؤى ، فبعثوه إلى رسول الله ﷺ ، وقالوا له : ائت محمداً فصالحه ، ولا يكون فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، فو الله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها عنوة أبداً . فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رآه النبى ﷺ مقبلاً ، قال : " **قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل** ." فلما انتهى سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ تكلم ، فأطال الكلام ، وتراجعا ، ثم جرى بينهما صلح .

وتشير وقائع الصلح الذى عقد بين رسول الله ﷺوبين قريش فى الحديبية بما لا يدع مجالاً للشك إلى طبيعة المسلمين ، وموقفهم من الحرب ؛ ذلك أنه يوضح أنهم لا يميلون إلى حرب ، وإنما يخوضونها ، إذا لم يكن هناك مجال لتجنبها . أما إذا لاحت ظروف – ولوعن طريق تنازلات من جانبهم – تهيئ جواً للسلام ، فهم يميلون إليه حقناً للدماء ، وتجنباً لويلات الحرب ، إذ أن فى قبول رسول الله ﷺ الرجوع عن مكة هذا العام – على الرغم من تكبده من مشاق فى سبيل زيارة البيت – يؤكد أنه لا يزال يأمل فى الوصول إلى حل عادل للمشكلة ، يضمن حقن الدماء ، ويضمن فى الوقت نفسه للمسلمين حقهم فى دخول مكة للطواف بالبيت ، وهو الحق الذى أصرت قريش على إهداره بقوة السلاح ، حين أعلنت أنها ستحول بحد السيف بينهم وبين دخول مكة ، حتى وإن جاءوا للعمرة فقط .

قبل النبى ﷺ المفاوضة على الصلح ، على الرغم من اتخاذ قرار حاسم بمحاربة قريش فى البيعة التى أخذها على المسلمين تحت الشجرة ، وما ذاك إلا لأنه يريد سلماً لا حرباً ، وأماناً لدعوته ، وليس فرضاً لها بالقوة أو بالإكراه ، بل إن من يقرأ بنود المعاهدة يحس بأن الرسول ﷺ كانت لديه رغبة شديدة فى تجنب القتال ، وعدم الدخول فى مصادمات مسلحة ، وتتلخص هذه البنود فيما يلى :

١. على المسلمين أن يرجعوا إلى المدينة ، دون أن يدخلوا مكة هذا ا لعام .

٢. من حق المسلمين أن يأتوا فى العام القادم فيدخلوا مكة ، ليقضوا مناسكهم .

٣. تلتزم قريش بعدم التعرض للمسلمين حين يدخلون مكة ، بأى نوع من أنواع التعرض .

٤. على المسلمين لدى دخولهم مكة ألا يحملوا من السلاح إلا سلاح الراكب ، وهو السيف .

٥. يلتزم المسلمون بأن لا يشهروا سلاحهم وهم بمكة ، بل عليهم أن يتركوا السيوف فى أغمادها ماداموا فى مكة .

٦. المدة المحددة التى ليس للمسلمين أن يقيموا أكثر منها فى مكة ، هى ثلاثة أيام فقط ، وعليهم أن يغادروا مكة بعد انقضائها فوراً .

٧. إنهاء حالة الحرب القائمة بين المسلمين وقريش بقيام هدنة بين الطرفين لمدة عشر سنوات يأمن الناس فيها على أنفسهم .

٨. يلتزم النبى ﷺ بأن يرد إلى قريش كل من جاء إليه من أبنائها بعد إبرام المعاهدة ، إذا كان قد جاء بغير إذن أهله ، وعلى النبى الالتزام بذلك ، حتى ولو كان اللاجئ مسلماً .

٩. ليس على قريش أن ترد إلى النبى ﷺ من جاء إليها من المسلمين ، حتى ولو كان مرتداً عن دينه .

١٠ تترك الحرية المطلقة للقبائل المجاورة للحرم ، لينضموا إلى أى المعسكرين شاءوا ، ويدخلوا فى عهد أى الفريقين أرادوا .

١١.تعتبر القبيلة التى تنضم إلى أى المعسكرين جزءاً من المعسكر التى تدخل فى عهده ، له ما لها ، وعليه ما عليها ، وعليها الالتزام بما جاء فى بنود المعاهدة .

١٢.أى عدوان تتعرض له أى من هذه القبائل يعتبر عدواناً على المعسكر الداخلة فى عهده ، كما يعتبر هذا العدوان مبطلاً للمعاهدة .

ويبدو من البند الثامن والتاسع مدى سماحة النبى ﷺ ، وتنازله فى سبيل إقرار هذا الصلح وإتمامه ، لأنه سيكون القاعدة الأولى فى صرح خلق الظروف الملائمة لحرية العقيدة .

اتفق المتفاوضون فى الحديبية على القواعد الكاملة لمعاهدة الصلح ، لكن قبل أن تسجل وثائقها ، ظهرت معارضة شديدة وقوية بين المسلمين ، وخاصة ضد البندين الثامن والتاسع ، اللذين بموجبهما يلتزم النبى ﷺ برد ما جاءه من المسلمين لاجئاً ، ولا تلتزم قريش برد من جاءها من المسلمين مرتداً ، كذلك عورض البند الأول ، وهو الذى يقضى بأن يعود المسلمون من الحديبية ، دون أن يدخلوا مكة هذا العام .

وكان عمر بن الخطاب يتزعم هذه المعارضة ، فقد ورد أنه قال لرسول الله : " **يارسول الله ! ألست برسول الله ؟ قال : بلى ، قال : أو لسنا بمسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ، قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ قال : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعنى .**"

اشتدت المعارضة ، حين وقعت حادثة أبى جندل ، وهى كما يرويها الإمام الواقدى : "... فبينما الناس على ذلك قد اصطلحوا ، والكتاب لم يكتب ، أقبل أبو جندل بن سهيل (أى ابن رئيس وفد قريش فى المفاوضات) قد أفلت يرسف فى القيد ... حتى أتى رسول الله ﷺ وهو يكاتب سهيلاً ، فرفع سهيل رأسه ، فإذا بابنه أبى جندل ، فقام إليه سهيل ، فضرب وجهه بغصن شوك ، وأخذ بلبته ، وصاح أبو جندل بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ، أُرَدُّ إلى المشركين يفتنونى فى دينى ؟ فزاد ذلك المسلمين شراً إلى ما بهم ، وجعلوا يبكون لكلام أبى جندل . فقال حويطب بن عبد العزى لمكرز بن حفص : ما رأيت قوماً قط أشد حباً لمن دخل معهم من أصحاب محمد لمحمد ، وبعضهم لبعض ! أما إنى أقول لك : لا تأخذ من محمد نصفاً أبداً بعد هذا اليوم حتى يدخلها عنوة . قال مكرز : أنا أرى ذلك .... قال الواقدى : وقال سهيل للنبى ﷺ : هذا أول ما قاضيتك عليه ، ردوه ، فقال رسول الله ﷺ : إنا لم نقض الكتاب بعد . فقال سهيل : والله لا أكاتبك على شيئ حتى ترده إلىّ ، فرده رسول الله ﷺ ، فكلم رسول الله ﷺ سهيلاً أن يتركه ، فأبى .

فقال مكرز بن حفص وحويطب : يا محمد ! نحن نجيره لك ، فأخلاه فسطاطاً فأجاراه ، وكف عنه أبوه . ثم رفع رسول الله ﷺ صوته ، فقال : " **يا أبا جندل ! إصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك فرجاً ومخرجاً . إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهداً ، وإنا لا نغدر .**"

وفّى الرسول ﷺ بعهده ، حتى قبل أن تكتب المعاهدة ويوقع عليها — أى قبل أن تأخذ الصفة الرسمية — ليعلم المسلمين الوفاء بالعهد ، امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [النحل : ٩١] ، ولم يتأثر باشتداد المعارضة داخل المعسكر الإسلامى ، لأن أوامر الوحى لا تخضع لرأى الناس ، وإنما يأتى بها التوجيه من الله ﷻ ، فهو سبحانه أعلم بما سترتب على هذه المعاهدة من نصر للإسلام وعزة للمسلمين ، ولهذا تنازل رسول الله ﷺ عن بعض الشكليات التى اعترض عليها وفد قريش فى كتابة نص المعاهدة ، منها : ، رفضهم تعريف محمد بأنه رسول الله ، لأنهم لا يؤمنون بذلك . كما رفضوا كتابة : " بسم الله الرحمن الرحيم " ووضعوا مكانها : باسمك اللهم . وغير ذلك من الأمور الشكلية ، التى لا تؤثر تأثيراً سلبياً على هيبة الدعوة الإسلامية .

كان صلح الحديبية حدثًا تاريخياً سماه القرآن الكريم فتحاً فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ ﴾ [الفتح : ١ – ٢]

كما أشار القرآن الكريم إلى نجاح هذا الصلح فى حقن الدماء ، وتجنب الاحتكاك المسلح بين الفريقين ، فقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الفتح : ٢٤]

ويؤكد — على امتداد التاريخ من يوم توقيعه حتى عصرنا الحالى — حرص الإسلام على السلام ، وإلزام المسلمين بالابتعاد عن الحرب ، كلما أمكنهم ذلك ، حتى يسود السلام الذى يسمع الإنسان فى ظله صوت الحق لا طلقات الرصاص ، ونداء العقل بدلاً من

صيحات الحرب ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران : ١١٠]

سلوك حضارى

لم يكثر الحديث فى وقت من الأوقات عن التخلف والتحضر ، والمقارنة بينهما بمثل ما كثر فى هذا القرن ، وخاصة فى النصف الثانى منه ، إذ لا يجتمع اثنان إلا ويكون موضوع حديثهما — بطريق مباشر أو غير مباشر — عن مدى التقدم الذى أحرزته هذه الدولة أو تلك ، ونصيب مجتمعهما فى المضمار .

كذلك عندما يُقَيَّم السلوك ، سواء كان على مستوى الفرد ، أو على مستوى الدولة ، فإنه يدخل فى الاعتبار مدى تحضر كل طرف من الأطراف المتعاملة مع الطرف الآخر . فإذا كان فظاً غليظاً ، يميل إلى العنف ، ويؤثر أسلوب العضلات على غيره فى مجال التفاهم ، ويستعمل السلاح لغة له فى مجال التبادل المادى ، وصفوه بالتخلف وعدم التحضر ، ووضعوا أسلوب تعامله فى مقام لا يكون فيه إلا البربرية والحيوانية . فأنت عندما تسمع من يتحدثون عنه ، لا تسمع أذنك إلا أنه إنسان وحشى بربرى ، لا سبيل إلى التفاهم معه ، لأنه لم ينل من درجات الحضارة ما يؤهله للحوار الفكرى بدلاً من الصراع المسلح ، والميل إلى تبادل الآراء بهدوء ، بدلاً من التسرع فى حمل السلاح والمناداة بصيحات الحروب والقتال .

فأصوات العقلاء ، وأقلام المفكرين ، ودعاة الحرية والإنسانية ، والداعون إلى السلام لا يفتئون يدعون المجتمعات البشرية إلى نبذ السلاح ، والجلوس على مائدة المفاوضات ، لأن هذا هو سمة العصر ، وأسلوب التحضر والتقدم ، وعلامة من علامات الجانب الإنسانى فى الشعوب . ويعدون هذه الظاهرة إحدى نتاج التمدن فى المجتمعات البشرية ، فمن يميل إلى

أسلوب المفاوضات فهو متحضر ، ومن يفضل حمل السلاح والقتال ، فهو إنسان يعيش بعقلية القرون الوسطى ، يوم أن كان السلاح هو الفيصل فى حسم المنازعات .

فإذا كانت الظاهرة الغالبة فى القرون الوسطى هى لغة السلاح والقتال ،وأسلوب العنف والاضطهاد ، باعتراف دعاة الحضارة فى القرن الواحد والعشرين ، وحاملى لواء التمدن والتقدم ، فيجب عليهم أن يقفوا إجلالاً واحتراماً لموقف محمد ﷺ من السلام فى تلك القرون التى كانت لا تعترف بالسلام ولا تقره ، بل كان الحديث عنه يعتبر — فى رأى من عاشوا فى تلك القرون — ضعفاً واستسلاماً ، وذلاً وهواناً ، وضياعاً وهلاكاً ، بل كان إقراره والاعتراف به ، يعد جبناً وخواراً ، وخوفاً وعاراً ، بل إن من يشعر بالعزة ، ويرى أنه صاحب سؤدد ومجد ، حيث يحيط به رجال أشداء ، وفرسان شجعان ، لا يفكر أبداً فى السلام ، ولا يمكن أن يخطر على باله فى لحظة من لحظات حياته ، مادام عزيزاً بين جنده ، شديداً برجاله المسلحين ، متأكداً من قدرته على استخلاص ما يريد من يد أعدائه .

مال محمد ﷺ إلى السلام ودعا إليه فى هذا العصر ، وهو بين جيش كان يستطيع به أن يدخل إلى مكة عنوة ، ويلحق بقريش هزيمة نكراء ، كما لقنها مثل هذا الدرس فى غزوة بدر ، ولكنه آثر السلام ، لأنه تعالى أمره به فى قوله : ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنفال : ٦١] . ولأن القتال لم يشرع فى الإسلام إلا للدفاع وتأمين العقيدة . وقد كان ذلك محتماً فى غزوة بدر وما تلاها ، أما الآن فى الحديبية ، فإن الدعوة لن تضار بعقد هذه المعاهدة ، بل على العكس من ذلك ، فإنها ستجنى ثماراً لا يمكن أن تنال بالحرب ؛ ذلك أن المعاهدة تعطى الأمن والأمان للدعاة ليجوبوا المنطقة داعين إلى الله . وهذا هو أحد الأهداف الرئيسية التى دار حولها النزاع مع قريش . فلم يكن محمد ﷺ يريد إجبارهم على الدخول فى الإسلام ، بل كان يطلب منهم عدم التعرض لمن يريد الدخول فيه .

فلو التزمت قريش بتنفيذ المعاهدة ، لانتشر الإسلام فى مكة وجميع أرجاء الجزيرة ، دون أن تراق قطرة من دم ، ولكن أهل مكة نقضوا العهد بعد أقل من سنتين فقط من توقيعه ،

فكان جزاؤهم على أن دخل جيش المسلمين إلى مكة فاتحاً ، فقضى على الكفر وزعمائه فيها ، فدخل الناس فى دين الله أفواجاً ، يقول تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾ [النصر : ١ - ٣]

فتح مكة

كان من نصوص الصلح الذى عقد بين محمد ﷺ وبين قريش : أن تُتْرَك الحرية المطلقة للقبائل المجاورة للحرم لينضموا إلى أى المعسكرين شاءوا ، ويدخلوا فى عهد أى الفريقين أرادوا ، فإن انضمت قبيلة إلى أحد المعسكرين فإنها تعتبر جزءاً من المعسكر الذى دخلت فى عهده ، له مالها ، وعليه ما عليها ، وعليها الالتزام بما جاء فى بنود المعاهدة .

فانضمت خزاعة إلى حلف المسلمين ، واحتارت بنو بكر الدخول فى عقد قريش وعهدهم ، وكانت بينهما إحن ودماء ، ولكن بموجب هذا الاختيار وجب على كلٍّ منهما الالتزام بما جاء فى الصلح ، وهو عدم الاعتداء ، لكن بنى بكر اعتدت على خزاعة ، وهم على ماء بأسفل مكة فأصابوا منهم رجلاً فاندلع القتال بينهم ، وساعدت قريش بنى بكر فى هذه المعركة .

فلما تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة ، وأصابوا منهم ما أصابوا ، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد والميثاق بما استحلوا من خزاعة ، وكانت فى عقده وعهده ، خرج عمرو بن سالم الخزاعى ، حتى قدم على رسول الله ﷺ بالمدينة ، وأخبره بما حدث ، فقال ﷺ : " **نصرت يا عمرو بن سالم** " ، وأمر بتجهيز جيش الفتح . فخرج بالمسلمين حتى نزل مر الظهران ، وكان عدد من معه عشرة آلاف مقاتل .

ويحدثنا الرواة أن رسول الله ﷺ حين فرق جيشه قبل دخول مكة أمر الزبير بن العوام أن يدخل فى بعض من المقاتلين من كُدى ، وأمر سعد بن عبادة أن يدخل مع فريق آخر من كداء ، وأمر خالد بن الوليد ، فدخل من الليط ، أسفل مكة .

لم يقاتل رسول الله ﷺ إلا فى الظروف التى لا تسمح إلا بالقتال ، فإذا لاحت بارقة أمل فى تجنب القتال ، مال إلى السلم ، وكف أصحابه عن سفك الدماء ، فكان مما وصى به أمراء جيشه ، حين وجههم لدخول مكة ، ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم . وإمعاناً فى تجنب القتال ، وعدم سفك الدماء ، أمر من ينادى فى الناس أن رسول الله ﷺ يقول : " **من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .** "

وهذا إجراء حضارى لم تعرفه جيوش الأمم التى تدعى أنها متقدمة ، وتزعم أنها تتصرف بأسلوب حضارى . و لم تباشره جيوش " العالم المتحضر " فى ذلك القرن الذى ملئ نداءات وشعارات ، تذكر الناس صباح مساء عبر وكالات الأنباء وأجهزة الإذاعات المرئية والمسموعة بما ينبغى أن يكون عليه سلوك الإنسان المتحضر . فما الفظائع التى ارتكبت فى حق الإنسانية أثناء الحرب العالمية الثانية عنا ببعيد ، بل زالت ترتكب فى القرن الواحد والعشرين فى العديد من مناطق الكرة الأرضية . ولن ننسى ما ارتكب فى فيتنام ولاوس وكمبوديا من وسائل الفتك والتعذيب للمدنيين العزل والأطفال الأبرياء . ولن يغيب عن أذهاننا ما يرتكب الآن فى سجون أبو غريب وجوانتانامو وغيرهما من فظائع فى حق الإنسانية على أيدى من يدعون أنهم دعاة الحضارة وأرباب التقدم ، وحاملو لواء المدنية .

بعد أن دخل المسلمون مكة طاف رسول الله ﷺ بالبيت ، ثم قام على الكعبة ونادى فى الناس :

" **يا معشر قريش ! إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس لآدم وآدم من تراب** ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات : ١٣] ، ثم قال : " **يا معشر قريش ! ما ترون أنى فاعل بكم ؟** قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : **إذهبوا فأنتم الطلقاء** "

يجب أن يتنبه المتشدقون بالحضارة ، وبما ينبغى أن يكون عليه تصرف الرجل المتحضر إلى نقطتين هامتين فى هذا الخبر :

أولاهما : دعوة الرسول ﷺ – وهو فى قمة انتصاره ، حيث الظرف مدعاة للفخر والتباهى — الناس إلى نبذ التفاخر بالأنساب والأحساب ، والتعالى على الناس بما يملكه الإنسان من مال ، وجاه وسلطان لا يدخلان فى تقييم الإنسان فى مجال السلوك والأخلاق .

ثانيهما : العفو العام عن أهل مكة ، وهم الذين آذوه ، وطردوه من بلده ، ونقضوا العهد والميثاق الذى أبرموه معه قبل سنتين .

ألا يعد هذا تصرفاً لا يمكن أن يرقى إليه أى قائد ، مهما كان سلوكه متحضراً ؟

أليس هذا دليلاً واضحاً على أن الإسلام يلزم المسلمين بأن يتجنبوا القتال ، كلما أمكن ذلك ؟

أيوجد مثيل لهذا الموقف فى عالمنا الذى ملئ بالمتشدقين بالحضارة وبالسلوك الحضارى ؟

ثم بعد هذا ، أهناك مجال لتصديق من يدعى أن الإسلام انتشر بالسيف ؟

لا ، فقد وضح وضوحاً لا لبس فيه أنه يدعو إلى السلام ، وأن المسلمين لا يلجأون إلى القتال إلا فى حالة الدفاع ، أو لتأمين حرية العقيدة ، حيث لا يكون هناك طريق آخر لتأمينها ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [البقرة : ١٩٤]

* * *